تطور المصطلح بين المنهج والمذهب

د. أدهم مسعود القاق، كاتب سوريّ

يرتبط مفهوم المصطلح اللغوي[1] بالتحوّل الدلاليّ للغة في سياقها سلبًا أو إيجابًا و"التحول الدلالي حقيقة جوهرية في اللغة تخضع لمبدأ الحاجة"(1) كما أنّ التغيرات المتجددة، التي تتسارع في حركة الحضارة الانسانية ضاعفت حاجات البشر ورغباتهم؛ ومن ثَمَّ أضحت عملية مواكبة اللغة للتقدم والثورات العلمية ضرورة تستدعي الاستجابة لمقتضيات هذه المتغيرات.

إنّ تزاحم الضرورات في مواكبة العصر الذي نعيش فيه، أدخلت المشتغلين بصياغة المصطلحات في اضطراب أدى إلى خلط في المفاهيم المعبّر عنها في صنوف النشاطات الإنسانية كافة، ولاسيّما الأدب والنقد والفلسفة.. وتتفاقم هذه الإشكالية في اللغة العربية؛ لأنّ أهلها لا يسهمون بإنتاج مستلزمات التحضّر والتقدّم، مما يخلّف آثارًا سلبية على رصيدها وضعفًا في صياغة مصطلحات الحداثة وما بعدها، وتحديد مفاهيمها، وقد ذكر الحبيب النصراوي أنّ: "العربية لم تعد بمنأى عن السياقات الحضارية الأخرى، في وقت لم تعدْ فيه منتجة للعلم ولا صانعة للحضارة، إنما اليوم هدف لكل جديد يظهر في الثقافات الغازية، وعليها أن تواكب ما أصبح يعرف بالحداثة في واقع معولم يرغب فيه المغلوب أبدًا الاقتداء بالغالب"(2)

وما يعنينا في هذا البحث هو التمييز بين مصطلحي المنهج والمذهب، وهما من المفاهيم التي اكتسبت معان ودلالات متجددة؛ إذ شرعت الإنسانية في

---

[1]– محاضرة ألقيت في مركز ليفانت للدراسات الثقافية والنشر، 2019م

التحلل من نظريات ومبادئ أرسطو النقدية منذ القرن السابع عشر، وازدادت تنوعًا وغنىً عند طغيان المذهب الرومانسيّ، الذي ثار روّداه على كل القواعد، التي سبقتهم، حيث ظهرت الرومانسية منذ نهاية القرن الثامن عشر، ثم مع توسّع أنواع وأجناس الإبداع الفني والأدبي، احتاج الأمر إلى وضع أصول ومبادئ وتحديد تخوم واضحة بينها، وترافق ذلك مع تطور مجتمعيّ أدى إلى صياغات جديدة للمفاهيم والمصطلحات وتشعباتها مجاراة للتقدّم الإنساني الحاصل ومحاكاة له، وقد ذكر د. محمد مندور: "أنّ القرنين التاسع عشر والعشرين هما عصر ظهور المذاهب والمناهج الأدبية والفنية وتنوعها تنوعًا كبيرًا، وبالتالي تعدد وتنوع مناهج النقد الأدبي واتساع وظائفه"(3)، ولعلّ من أهمّ المصطلحات وأكثرها تعقيدًا المنهج Method لأنّه عدّ في سيرورته المعين في تكوّن المذاهب والمدارس، والأساس في بلورة مفاهيم حديثة عنها.

المنهج كلمة تدلّ على الطريق، أو الخطّة المدروسة للوصول إلى الهدف، ومناهج البحث هي التي: "تدور في إطار التنظيم الدقيق لمجموعة من الأفكار من أجل الوصول إلى حقيقة لم تكن معروفة من قبل، ويطبع هذا التنظيم وجود طائفة من القواعد العامة تسيطر على سير العقل"(4) وهذا ما يضمن نقل الأفكار والمعارف والمهارات في سيرورة التقدم الإنسانيّ وتعاقب الحضارات البشرية.. لقد تطور المنهج منذ الحضارة الإغريقية حينما قسمت الفنون السبعة The Seven liberal arts إلى قسمين وفق منهجية متناسقة:

الأول: فنون الكلام المكونة من ثلاثية (النحو والمنطق والبلاغة)، والثاني: الرباعيات (الحساب والهندسة والفلك والموسيقى)، ثم سار الرومان وفق المنهج اليونانيّ، مضيفين ضرورة دراسة اللغة اليونانية إلى جانب اللغة المحلية، وبقيت هذه المفاهيم سائدة في العصور الوسطى.

استمرت أفكار أرسطو بالهيمنة على النشاط المعرفي والإبداعي، فنتج أدبًا ذكرته موسوعة الأدب والنقد: "أدب العصور الوسطى هو نتاج مجتمع تقليديّ، محافظ، يراعي المعتقدات والأغراض، ويعشق الحكايات، ويتمعّن بالكتب القديمة Old book"(5) إلى أن بدأ عصر النهضة في أوروبا في القرن الرابع عشر، منطلقًا من إيطاليا على يد بترارك (1304 – 1374م) الذي انتصر لبَعْثَ التراث الإغريقي والروماني، وعدهما مقياسًا للنشاط الإنساني، وبالفعل تركّز النشاط الفني والأدبي في عصر النهضة على استحضار هذين التراثين، وقد احتاج هذا النشاط لانتشار تعليم اللغتين اليونانية واللاتينية في مدارس أوروبا حتى بدايات القرن العشرين.

زاد في القرن السابع عشر الاهتمام بالمناهج، ففي عام 1620م صدر كتاب "الأورجانون الجديد" لفرنسيس بيكون (1561 – 1626م) الإنجليزي، وهو كتاب منطق جديد مغاير لكتاب أرسطو "الأورجانون" وقد ذكر فيه ضرورة استقلال العلم عن الفلسفة، داعيًا إلى حوار الطبيعة بدلًا من التقوقع داخل عالم الألفاظ، وإلى تسجيل الملاحظات بعد إخضاعها للتجربة، ثم صدر كتاب "المقال في المنهج" لديكارت (1596 – 1650م) الفرنسيّ، الذي أكّد فيه على الجانب الرياضيّ العقليّ للعلم، والذي يقول فيه: "خير للإنسان أن يعدُل عن التماس الحقيقة من أن يحاول ذلك من غير منهج"(6) ودعا إلى استنباط النتائج المترتبة عن مقدمات واضحة لتتشكّل قواعد راسخة لكل معرفة تالية.

ولابد أن نذكر مرحلة الصعود الحضاري في عصر التدوين منذ العصر العباسي الأول، حيث ظهرت مناهج تلبي ازدهار الثقافة والحضارة الإسلامية، التي بلغت الحياة العلمية والأدبية فيهما شأنًا عظيمًا، فاتسعت حركة الترجمة، وكثر المترجمون والمؤلفون في العلوم المختلفة، التي لم تقتصر على ما يتصل

بالدين، كعلوم القرآن والحديث والفقه والعقيدة والتصـــوف، بل اهتمت بالفروع الأخرى كالفلسـفة والمنطق والرياضـيات وعلم الفلك والتنجيم والجغرافيا والتاريخ، والطب والعلوم الطبيعية، فضلًا عن الموسوعات والأنساب والفنون .

وتربع أعلام على قمم عدد من هذه الفروع الدينية والدنيوية والعلمية، واحتشـــد المبرّزون والروّاد، الذين خُلدت أســـماؤهم عن طريق ما أبدعوه في الحقول اللغوية والأدبية: في الشـــعر وفي النثر الفني والأدب، وفي البلاغة والنقد، وفي النحو وعلم اللغة والمعاجم؛ إذ انتشـــرت مفاهيم جديدة ومناهج مختلفة عن القديم، ويذكر منهم الجاحظ في البيان والتبيين والحيوان، وقدامة بن جعفر في نقد الشعر، والآمدي في صناعة الكتابة، والخليل بن أحمد الفراهيدي وسيبويه وابن قتيبة وغيرهم، ممن ساهموا في صياغة حياة عقلية جيدة انعكست بدورها على المجتمع تقدمًا وتحضـــرًا تبعًا لانتشـــار مناهج ورؤى متنوعة تنظم الحياة الاجتماعية والثقافية والإبداعية برمتها.

بعد انتشـــار اللغات القومية في أوروبا، وبعد انتصـــار الثورات الديمقراطية والصناعية في نهاية القرن الثامن عشر والقرن التاسع عشر بدأ الاهتمام بعامة الشعب، وبدأت المواجهة بين الجديد ممثلاً بالطبقات الشعبية والقديم من الفئات الأرســـتقراطية، التي مانعت إدخال العلوم الحديثة على حياتها، ولكن العلوم، وقتذاك، تفوقت عقليًّا وســـلوكيًّا وروحيًّا على ثقافة وتقاليد طبقة النبلاء، التي ظهرت وتبلورت منذ عصـر النهضـة الأوروبي، ووسـط معمعان هذا الصـراع بدأت تتشعب المناهج في محاولة الوصول للحقيقة، عاكسة تعقد الحياة وغناها بالتجارب والمعارف، فتزايد بث روح القيم الجديدة التي لا زالت تتغاير تبعًا لانتصارات الثورات العلمية المتتالية حتى أيامنا الحاليّة.

إنّ المناهج النقدية والأدبية التي تنوعت كثيرًا، وخاصة في القرن العشرين منحت البشرية طاقة على إنتاج المزيد من المعارف والقيم الناشئة في أحضان الفنون والآداب، هذه المناهج التي تعدّ:" قواعد وثيقة وسهلة تمنع مراعاتها الدقيقة من أن يؤخذ الباطل على أنه حق وتبلغ بالنفس إلى المعرفة الصحيحة بالأشياء كلّها، التي تستطيع إدراكها من دون أن تضيع في جهود غير نافعة، وهي تزيد ما في النفس من معلم بالتدرج"(7) هذه المناهج جعلت الفاعلين في المجال الثقافي مدركين لمجريات التغيرات، التي تطرأ على الواقع التاريخيّ والاجتماعيّ، ومن ثَمَّ بدأوا يقنونون كلّ النتاجات الفكرية والفنية والأدبية الجديدة، ويحدّدون مقاييس جودتها، ومن هنا ازدادت عملية الضبط وتفاعل الثقافة مع المستجدات، وتباينت الآراء واختلفت المناهج إلى أن بدأت ملامح المذاهب الكبرى المتأتية من مدارس أو نظريات أدبية بالظهور والتبلور، حيث أخضعت الأعمال الأدبية أو الفنية لمناهج لها قواعد وقوانين بغية الكشف عن طبيعة الإبداع.

ولا يوجد عبر التاريخ الإنساني سوى ثلاثة مذاهب تشكّل منها المدارس الكبرى ونظريات تابعة لها، وهذه المذاهب هي: الكلاسيكي، والرومانسيّ، والواقعيّ وتحولاته المتنوعة، ويذكر أنّ كلّ هذه المذاهب قامت على اعتبارات متشابهة، كالتغيرات الاجتماعية والثقافية الناتجة عن صراعات تاريخية أفضت إلى تكوين قوى مجتمعية جديدة ومتجددة، وأيضًا كالنظريات الفلسفية المفسرة لهذه التغيرات.

د. أدهم مسعود القاق، كاتب سوريّ

المراجع

1) عزت محمد جاد، نظرية المصطلح النقدي (الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، 2002) ص21
2) الحبيب النصـــراوي، قاموس العربية من مقاييس الفصـــاحة إلى ضغوط الحداثة (عالم الكتب: الأردن، ط1، 2011) ص12
3) محمد مندور، الأدب وفنونه (نهضـــة مصـــر: القاهرة، 1996م) ص133
4) محمود ســـليمـان يـاقوت، منهج البحـث اللغوي (دار المعرفـة الجامعية: الإسكندرية، ط1، 2000م) ص82
5) عبد الحميد شيحة، موسوعة الأدب والنقد (المجلس الأعلى للثقافة: القاهرة، 1999م) ص176
6) عثمـان أمين، ديكـارت (دار النهضـــة: القـاهرة، ط4، 1957) ص75
7) مجدي وهبـه وكـامـل المهندس، معجم المصـــطلحات في اللغة والأدب (مكتبة لبنان، ناشرون: بيروت، 1984م) ص 346